سوريا في زمن الصليبيين[1]

لنقولا زياد

حالة سوريا السياسية

سهل ساحليّ ضيق في الشمال ، متسع في الجنوب ، تحدب عليه من الشرق سلسلة من الجبال الجيرية ، وقد يقوى عطفها عليه ، فتعانق البحر مرات رأفة به ، وتسند هذه الجبال سلسلة اخرى الى الشرق منها ، فتدفع عنهما قائلة البحر الرملي المنبسط شرقاً الى حدود العراق . وبين السلسلتين سهول منخفضة ، يشتدّ بها الانخفاض والضغط حتى تفقد الحياة في البحر الميت . في شمالها جبال طوروس الوعرة المسالك ، وفي جنوبها صحراء سيناء القديمة السبل — هذه هي سوريا

تتوسط الشرق الادنى ، وبذلك كانت قلب العالم المتمدن الخفاق . تقوى مصر فتمتد اليها ، ويشتط العراق فينطلع نحوها ، وتقوم قائمة آسيا الصغرى فتفكر فيها . ويدفع البحر المتوسط بأقوامه وسفنه فيجدون في شواطئها الملجأ . وتقسو الصحراء على اهلها ، فيهرعون اليها ، ليستمتعوا بخيراتها ، وليستوطنوا اديمها . وتسود السلام انحاء العالم ، فيعنى بالتجارة ، وفي موانىء سوريا تتبادل سفن اليمّ وسفن الصحراء انقالها

من الصحراء جاءها اكثر سكانها ، قرناً بعد قرن ، حتى كانت خاتمة المطاف هذه الحملة الاخيرة العربية ، التي وحدت — الى درجة كبيرة — لغة السوريين ، وثقافتهم ، وعقليتهم ، وتفكيرهم ، ودينهم ، منذ ثلاثة عشر قرناً

خضعت سوريا للراشدين ، وحمت الامويين ، وتبعت العباسيين ، وتقربت من الفاطميين . وطالعها القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وهي نهب مقسم بين المتغلبة على الاطراف من اتباع العباسيين وخصومهم . فالفاطميون في القاهرة ، والسلاجقة في ظلال الخلافة البغدادية ، والامراء المحليون والقبائل التركمانية والروم والقرامطة والمماليك ، يتنازعونها . وكلٌّ يستميل ويسترضي ، ويهب ويمنع ، ويقاتل ويفتح ، لقاء خضوع يرجوه ، او مال يزجى اليه ، من خلال الفلاح ، او رسم يفرض على تجارة مهبط البلاد

اما السلاجقة فقد شغلوا بامر انفسهم واطماعهم الخاصة ، فلم تكن لهم دولة بل دول ، وما كانوا يتنصون عن التجرء الى خصم اجنبي ليتقووا على آخر شرقي ، خصوصاً بعد وفاة كبيرهم ملكشاه (١٠٩٢ م) ، فصار الامر الى الاتابكة الذين شغلوا الناس في القتال دون مطامعهم

---

(١) القيت في ندى الكتبة الارثوذكسية بيافا (فلسطين)

واما الفاطميون فمع ان سلطانهم السياسي قد دفع عن اكثر سوريا، فقد بقي لهم في المدن الكبرى وفي الضياع اتباع يدينون برأيهم حتى ان السلاجقة الامراء كانوا كثيراً ما يترضونهم [١] وما تغلب السلاجقة الا لأنهم سنيون واكثر السكان من مذهبهم [٢] ، ولان المصريين اساءوا السيرة مع هؤلاء [٣] ثم انهم لم يميروا السكان التفاتاً لما دهمهم الخطر الافرنجي . فقد ذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينما كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول الخليفة الفاطمي على مركب يطلب منهم، لاسم الخليفة ، جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب [٤] اضف الى ذلك انهم (اي المصريين) لما دهشوا لغزو الفرنج الشام ، لم يريدوا ان يثيروا حفائظهم خشية ان يهاجموا مصر ، فكان اتجادهم للشام صعباً

والخلافة العباسية كانت في نجوى عن كل ما في الشام او غيره . فالضعف مستحوذ عليها وامرها بيد غيرها . فلا خير يرجى منها ولا أمل . فهذا ابن عمار ، صاحب طرابلس ، يشتد به الأمر (١١٠٧م و٥٠١ هـ) فيذهب الى بغداد مستنجداً ، ويطول مقامه هناك على غير طائل [٥] . وهذا هاشمي من حلب، يذهب الى بغداد (١١١١ م و٥٠٥ هـ) يصحبه صوفية وتجار وفقهاء ليستنجدوا فلا يؤبه لهم حتى يدخلوا جامع السلطان ، فينزلون الخطيب من المنبر ، ويكسرونه ، ويصيحون ويبكون ، لما أصاب سوريا من غزو الفرنج ، ويمنعون الناس من الصلاة جمعتين متتاليتين ، حتى يرعوي السلطان — وهو صاحب الأمر والنهي في الخلافة — الى رؤساء الاجناد ، بالتأهب للسير الى دار الجهاد [٦]

وفي غمرة هذا النزاع ، ينشىء الامراء العرب أمارات خاصة في سوريا . فطي [٧] في شرق الاردن ، وعقيل في اطراف العراق ، وكليب في حلب ، وبنو عمار في طرابلس ، وبنو منقذ في شيزر [٨] . هذا الى عدد كبير كانت له سيادة خاصة [٩] . كما ان غيرهم من متغلبة الامراء ، صرفوا همهم في لهو وعبث ، وترف وبذخ [١٠] . والأمير يرث اباؤه ملكه ، كما يرثون مزرعته وبيته ، فتنقسم الامارة الواحدة ، وتصبح حرباً على نفسها [١١]

ويتراءى لنا أن سكان البلاد كانوا راضين بهذا الذي أصابهم ، من خصومة تستعر ، ونزاع يستحر ، بين الدول والامراء والزعماء والمتغلبة . ولكن الواقع أن هؤلاء هم الذين كرنوا مادة الدول وقوتها ، وكانوا هشيم القتال وناره ، وكان لهم من ثم ، نفوذ في شؤون بلادهم ، وخشيهم حكامهم الاتراك ، كما استعانوا في الدفاع عن نفوسهم ضد الصليبيين [١٢] . وكانت جبال لبنان مأوى الموارنة ، وشمالهم النصيريون (العلويون) وجنوبهم الدروز وشيعة جبل عامل ، وقد استطاع

(١) Gibb 16—17 (٢) الخطط ١—٢٦٣ (٣) الخطط ١—٢٤٩ و٢٥٨ (٤) نقله كردعلي الخطط ١—٢٩٢
(٥) الخطط ١ — ٢٩١ (٦) الخطط ١ — ٢٩٦ (٧) اسامة ١٢ (٨) راجع مقدمة الدكتور فيليب حتي لكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ (٩) Gibb 17—18 والخطط ١—٢٤٦ و ٢٤٩ (١٠) الخطط ٢— ٥٢
(١١) الخطط ٢ — ٤٨ (١٢) Gibb 20—27

هؤلاء ان يستعينوا باستقلالهم المحلي الى مدىً بعيد [١] . وفي القلاع الحصينة القوية كان الاسمعيليون [٢] الثوار، ينظمون شؤونهم، ويوفدون رسلهم ليغتالوا كل من يحاول النيل منهم أو التعرض لهم وكل من هؤلاء الامراء كان يعنى بتحصين قلاعه وتضخيم أسواره ضد سيده أو جاره [٣]

وباختلاف هؤلاء القواد كانت تختلف أجناس الجند، فأكثرهم أتراك من اواسط آسيا، ولكن بينها السلاقيون من شرق اوربا، والروم، والارمن، والكرج [٤] (الشراكسة) والديلم [٥] والتركمان (الغز) [٦]، والمغاربة [٧]، والاكراد [٨]، والخوارزمية [٩]، والخراسانية [١٠]. فقد اجتمع في الجيش الصلاحي، مثلاً، من الجموع والألسنة، من لا يحصر معدوده، ولا يتصور وجوده [١١]

والجيوش التي جيّشها مختلف الامراء تفاوت عددها كثيراً. فقد كان جيش ملكشاه (٤٠٠،٠٠٠) ولهُ (٤٦،٠٠٠) من العبيد [١٢]، وجيش كربغا الذي قاده لحصار انطاكية (٥٠،٠٠٠) [١٣]، وفي صباحات مندفل أنهُ من السهل على ملك مصر أن يجيش (٥٠،٠٠٠) [١٤] أما جيش صلاح الدين في حصاره لعكاء (١١٨٩ — ١١٩١) فنستطيع ان نتصور عدده اذا اطلعنا على ما جاء في السلوك عن « السوق الذي في عسكر السلطان » [١٥]. فقد روى المقريزي نقلاً عن البغدادي « كان السوق الذي في عسكر السلطان على عسكاء عظيماً جداً، ذا مساحة فسيحة. فيه مئة واربعون دكان بيطار. وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدراً، كل قدر تسع رأس غنم. وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مئة دكان، لان الخوانج في الاعدال والجواليقات. ويقال ان العسكر أنتنت منزلهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد. وزن حمان أجرة نقل متاعه سبعين ديناراً. وأما سوق البز العتيق والجديد ففيه يبور العقل. وكان في العسكر أكثر من الف حمام، يغسل الرجل فيه رأسه بدرهم أو أكثر» وكان أصغر الامراء له على الاقل الف جندي [١٦]

---

(١) Gibb 28، الخطط ٢ — ٤، ١٤ و ٣٢ و ١٢٢ و ١٣٥ و ١ — ٢٠١ والسكيلة ١٨ — ٢٠٩ و Lamb ١٨٧ والمريزي ٧٦ ولعل بعض الثوار انضم الى الصليبيين كما فعل بعض شيعة جبل عامل (٢) ابن جبير ٢٢٩ والمقريزي (السلوك) ١ — ٦١ (٣) مثل حصين انطاكية — راجع Kugler 45 و Lamb 106 (٤) Gibb ٢٩ و ٣٣ و Kugler 7 و Lamb 166 والخطط ١ — ٢٨٠ واسامة ١٠٣ و ١٠٦ و ٢٠١ وتاريخ الكنيسة ٧٥ (٥) Gibb 38 (٦) Gibb 19, 25, 36 والخطط ١ — ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، والفتح ١٠٦ (٧) Gibb 37 (٨) اسامة ٣٧ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٦ و ٩٥ و ١٢٢ و ١٤٩ (٩) تاريخ الكنيسة ٨١ و ٨٢ والخطط ٢ — ١٠١ (١٠) اسامة ٧٣ و ٧٤ و ١٠٦ و ١٥٨. والظاهر ان معظمهم كانت تحت الاسوار (١١) أبو شامة ٢ — ١٨٥ والفتح ٢٤٩ — ٢٥٠ (١٢) Gibb 36 والخطط ١ — ٢٧٥ (١٣) Kugler 50 (١٤) Early Travels 146 (١٥) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٤ - والمقريزي يقول انه نقله عن عبد اللطيف البغدادي، ولعل المصدر الذي يشير اليه هو الذي يسميه البغدادي الكتاب الكبير المذكور في كتابه المطبوع. والكتاب الكبير هذا لم يصل الينا (١٦) Gibb 38

ومن ملاحظة ما ذكرناه عن الجند نستطيع أن نقول أن سكان سوريا في العصر الصليبي كانوا مجموعة من الشعوب ، اكثرهم عرب ، ومعهم هذه القبائل التي مرت بنا ، وفيهم النساطرة واليعاقبة واليونان والموارنة من النصارى [١] ، والباقون — وهم اكثر السكان طبعاً — المسلمون . وفي كثير من المدن كان اليهود ، وبأيديهم الصناعات [٢] . ولعل عددهم لم يتجاوز العشرة آلاف [٣] . وكانت اللغة العربية اللغة الجامعة لهم جميعاً ، ولهم لغاتهم الخاصة . والعلاقات بين أهل سوريا ، مع اختلاف المذاهب ، كانت حسنة [٤]

وقد أناط الحكام بالنصارى واليهود أعمالاً رسمية كثيرة من ذلك ان العادل ولى (١١٨٣ م و ٥٧٩ هـ) الانشاء وما يتعلق بأمور السر « الصنيعة بن النحال » وكان نصرانيًا — ثم اسلم على يد العادل — فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ملّى دين المسيح في دولة الـــعادل حتى علا على الأديان
ذا أمير وذا وزير وذا وا ـــل وذا مشرف على الديوان [٥]

كما أن مستوفي دار حلب كان نصرانيًا [٦]

الحالة الاقتصادية

هذا الوضع السياسي الشاذ الذي كانت فيه سوريا ، ترك في كل نواحي الحياة فيها آثاراً سيئة ، فهذه الاحداث المستمرة أثرت في احوال البلاد الاقتصادية ، زراعتها وتجارتها وصناعتها . واذا ساءت الادارة ساء معها كل شيء . وهذه دمشق ينقص عدد سكانها من نحو نصف المليون الى ثلاثة آلاف بسبب ادارة الفاطميين السيئة (١٠٧٥ م) [٧] . أما حلب فتنمو وتتقدم بحسن ادارة اق سنقر [٨]

فأما الزراعة فلم يولها السلاجقة عنايتهم ولا رعايتهم . وكان أصحاب الاطراف أشد وطأة منهم [٩] وتضررت البلاد من الاحداث . فلم تُنبع الثمار ، وتكثر الزروع ، وتستغل الأرض ، الا في الأماكن الممتازة بحسب تربتها وكثرة مائها كغوطة دمشق واطراف يافا وقيسارية وانطاكية وطرابلس . ولعل سبب ذلك شيوع التملك الفردي [١٠] . وفي زمن احتلال الصليبيين للبلاد لم يكن للفلاحين حرية في استثمار الارض بله امتلاكها ، وتأخرت الفلاحة السورية وبقيت اراض كثيرة مواتاً [١١] . ومن هنا كانت كثرة حدوث المجاعات في سوريا أبان القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر [١٢] . على أن بعض التحسن طرأ على الحالة الزراعية بعد ان استقر الفرنج في البلاد ، واطمأن اليهم الفلاحين ، واطمأنوا هم الى الفلاحين

---

(١) Gibb 29 و Kugler 11 و Lamb 127 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و ٧٧ واسامة ٧٩ و ٨٠ وأبو شامة ١ — ٣٢ (٢) المسبحي ١١٨ (٣) Prutz 3,151—152 و Early Travels 73—98 (٤) ابن جبير ٢٦٨ ، ابن بطوطة ١ — ٤٩ (٥) ابو شامة ٢ — ٥٢ (٦) الخطط ٥ — ٧٢

(٧) Gibb 27 عن سبط ابن الجوزي (٨) نفس المكان (٩) المسبحي ١٠٠ (١٠) المسبحي ١٠١ (١١) المسبحي ١٠٥ (١٢) نفس المكان

وأما الصناعة فقد قامت في المدن الكبرى قوية على الصموم . وقد كانت سوريا مناطق ، تجيد كل منطقة منها صناعة . ففلسطين تصنع المرايا المعدنية والزجاجية وقدور التنابيل والآبر والخرز ، وصور تصنع الزجاج ، ودمشق تصنع الديباج والانسجة ودهن البنفسج والورد ، وبعلبك وحلب تحيك الارزية وبيروت تتقن تربية الحرير ونسجه [١] . وتشارك طرابلس تكرير السكر ونسج الحرير [٢] ، وفي طرابلس وحدها كان المشتغلون بالحرير نحو اربعة آلاف [٣] واشتهرت مدن اخرى بالميا والصيني . هذا الى الاسلحة المتنوعة المموهة بالذهب . وقد وصلت المُدى الشامية جاوه في جزر الهند الشرقية [٤]

***

وفي زمن الحروب الصليبية احتاج الجنود الكثيرون الى الثياب والعُدة والسلاح ، فقوى ذلك الصناعات المختلفة . وقد ترك لنا ابن جبير الرحالة المغربي وابن بطوطة والادريسي والمقدسي وجوانفيل ومندفيل [٥] وغيرهم ممن اقام في سوريا او ساح فيها في تلك الازمنة صوراً حية قوية للتقدم الصناعي الذي كانت عليه سوريا ، وانواع الصناعات التي كانت فيها ، ومدى اتقانها . فالحرير والزجاج والصابون والاسلحة والصيني والسكر والدبس السوري كان في درجة المصنوعات الرومية والاصفهانية والعراقية والمصرية [٦]

وقد احتفظت سورية بقيمتها التجارية ، سيما وان المدن الايطالية كانت لا تعرف غيرها طريقاً للشرق الاقصى ، وخصوصاً بعد ان ضيق ملوك بزنطية الخناق عليهم خوفاً من منافستهم . وهذا الاتجاه الجديد في اتخاذ موانىء سوريا مراكز للاتجار مع الشرق الاقصى قام به الجنويون والبيزيون والبنادقة والاسقيون [٧] والنابليون ، فصارت عكاء واسكندرونة وطرابلس وصور محط رحال القوافل ، ومستودعاً لحاصلات الصين والهند وبلاد العرب ، ومورداً لاسواق ايطاليا وفرنسا . وقد كان اول فصل في التاريخ يدفيًا تعين في عكاء في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي [٨] وفي اثناء الحروب اخذ تجار الاوربيين الصليبيين على الفتح ، وكان جزاؤهم على ذلك اسواقاً وخانات خاصة بنوها لتجارتهم وتجارهم ، مع انهم لم يهتموا ببناء كنيسة حتى في القدس . وزاد في العصر الصليبي اشتراك اهل جنوب فرنسا مثل مكان مونبليه ومرسيليا وبربون . في هذه الاسواق السورية كانت تلتقي الثمار والفواكه والمصنوعات المحلية بالجهارات والجواهر والمسك والخمر والنيلة واليشب وبقية

---

(١) المسعودي ٩٣ — ٩٣ و ١١٦ (٢) المسعودي ٩٤

(٣) المسعودي ١١٢ ص هايد (٤) المسعودي ٩٤ (٥) رحلة الكلبي زار سوريا في القرن الرابع عشر راجع اشاراته في Early Travels 127—252 وعن الصناعة ١٤٣ (٦) المسعودي ١١٦ — ١٢٠ (٧) كان لكل من المدن الايطالية مستعمرات تجارية في بزنطة وانطاكية والقدس . راجع Kugler 8 — 9 و Prutz 46,47 108-9,338

(٨) فيليب حتي سعد الكتاب الذهبي لبريد المقتطف ١٤٩

منتجات الشرق الاقصى ، وبالاجواخ والانسجة الملونة والكتان والطيوط الذهبية والحرير الفرنسية والايطالية [١]

ولعل خير شاهد على التقدم التجاري ، غير ما مر بنا ، الخانات التي كانت بين المدينة والاخرى يحل فيها التجار . فبعضها كان كأنه القلاع امتناعاً وحصانة وابوابه حديد ، وهي من الوقاية في غاية [٢] حتى أن المعارك ، ما كانت تقف التجارة ولا تمتنع . يقول ابن جبير [٣] ومن اعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وفي مكان آخر [٤] ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . وقد شاهد هذا هو بنفسه . وكانت الضرائب معينة متفقاً عليها بين الافرنج والمسلمين ، يدفعها تجار كل قوم في بلاد الآخرين [٥] وكانت هناك ضرائب على الجسور عند مداخل الاودية وامام الحصون [٦] اما كن دفع الضريبة منها تبنين وبانياس وكان بين مصر وسوريا مركز جركي في قطيا (حول العريش) حيث يفتشون التجار والامتعة والجواز عليها من الشام الى مصر وبالعكس بدقة ، وعجباها كل يوم الف دينار من الذهب [٧] على انه لما خضعت مصر والشام لدولة واحدة ، واشتدتا في مقاومة الصليبيين ، قويت التجارة بينهما وزالت الحواجز الجركية [٨]

الحالة العلمية

قبيل الحملة الصليبية الاولى كانت سوريا مركزاً قوياً من مراكز الحضارة الاسلامية . ذلك لان الثقافة الاسلامية ، التي اقتصرت قبلاً على بغداد وما إليها ، وجدت الآن في كل مدينة كبيرة تربة خصبة . فتنقل العلم في المدائن ، وانتشرت المكاتب الكبرى ، ووضعت الموسوعات ، وتعددت انواعها كما تنوعت الابحاث العلمية والسياسية والاقتصادية ، واصبحت المعرفة موزعة على كثير من الكافة بعد ان كانت وقفاً على الخاصة . وشجع الامراء المحليون هذه النزعات الادبية ليتم لهم مجال التفخر على اقرانهم ، والتفوق على أندادهم . أو حرصاً على نشر التعاليم الاسلامية أو رغبة في العلم نفسه [٩] فأدى هذا الى نضوج الفكر [١٠] في كل ما درس من علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة والمنطق . ومع أن الاوضاع السياسية والحربية في العصر الصليبي كان من شأنها ان تصرف الناس عن العلم ، فقد احتفظت سوريا بالكثير من علمها ، وكانت المدارس منتشرة [١١] ، وحلقات التدريس في المساجد

(١) المسبحي ١١٢ والمقريزي «السلوك» ١ — ١٨٦ (٢) ابن جبير ٢٣٣ — ٢٣٤ (٣) ابن جبير ٢٦٨ (٤) ابن جبير ٢٨٠ و٢٨٢ (٥) ابن جبير ٢٦٨ (٦) المسبحي ١١٢ (٧) ابن بطوطة ١ — ٣١ (٨) المقريزي «السلوك» ١ — ٩٩

(٩) تاريخ الموصل ٢ — ٨٩ — ٩٠ (١٠) زيدان — آداب اللغة العربية ٢ — ٢٣١ (١١) زيدان — آداب اللغة العربية ٣ — ١٢

معقودة ، ودور القرآن بالطلاب عامرة ، والمعاجم التاريخية والجغرافيا موضوعة بين أيدي الناس . والذي وصل الينا من أمهات الكتب التي ألفها العلماء في الابحاث المختلفة ، منذ أواسط القرن الرابع الهجري الى أواسط القرن السابع أربى على الستمائة غير ما فقد منها وهو كثير (١)

وأول من أنشأ ابنية خاصة للمدارس هو نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، في القرن الحادي عشر للميلاد ، ثم حذا الاتباع حذوه . وكانت قبله دور العلم هي المساجد وحدها . وقد زاد عدد المدارس السورية الكبرى ، في امهات المدن ، عن المائة والخمسين بين القرن الخامس والقرن السابع الهجري (٢) . وكان في دمشق وحدها ثلاث مدارس عالية للطب (٣) ومدرسة للهندسة (٤) . وهذا صلاح الدين لا يكاد يفتح القدس (١١٨٧م و ٥٨٣ هـ) حتى يؤسس فيها مدرسة (٥) ، ويفعل مثل ذلك في عكاء (٦) وقد عني الامراء بانشاء دور للقرآن (٧) ودور العلم والحكمة ، كالتي انشأها ابن عمار في طرابلس ، فأصبحت طرابلس بها مباءة علم ودرس ومباراة في التعليم ، وجهز هذه الجامعة بمائة الف مجلد (٨) وكانت فيها مدرسة اليعاقبة (٩) ولعل طرابلس كانت اول مدينة علمية بالشام لما استولى عليها الصليبيون (١٠) وكذلك كانت مدن كثيرة في سوريا مشحونة بالعلم ككفر طاب وقرى دمشق (١١) والقدس . وكان الانفاق على التعليم يتوافق مع العناية بالمدارس ، لان لكل مدرسة اوقافاً تحبس عليها ، فلا تصرف في غير هذه السبيل . وقد كان ارزاق ارباب العمائم في دولة صلاح الدين تتجاوز مائتي الف دينار بشهادة ابن الله (١٢) وكان للسلاطين وكبار القواد والامراء مجالس ادب يحضرها العلماء والفقهاء ، والمحدثون والشعراء ، فتكون سبيل ارشاد وافادة (١٣) وهذا صلاح الدين كان ينفق من صدقاته على ستمائة من فقهاء دمشق (١٤) والملك المنصور صاحب حماة كان يصحبه نحو مائتين من النحاة والفقهاء والمشتغلين بالعلم (١٥) وكانت في سوريا ، وفي مدنها الكبيرة فقط ، نحو عشرة مستشفيات مع ما يتصل بها من صيدليات ومدارس طبية (١٦)

هذه العوامل المختلفة ساعدت على نشر التعليم بين عدد كبير من الناس كما قدمنا ، ولم تحصره في عدد قليل من الخاصة . ولعل من الخير ان نشير هنا الى ان تعاليم اخوان الصفا الفلسفية كانت منتشرة بين الاسمعيليين (١٧) . وقد عثر على كثير من نسخ رسائلهم في انقلاع الاسمعيلية (١٨) . وقد كانت أشهر الكتب تداولاً في نهاية القرن العاشر للميلاد رسائل اخوان الصفا ومفاتيح العلوم والفهرست لابن النديم (١٩) ، وهي كتب لها خطرها في الحياة العقلية

---

(١) راجع زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الثاني والثالث وأيضاً Prutz 53 ـ 4
(٢) الدكتور خليل مواضع ١٤٤ ـ ١٦٣ والخطط ٦ ـ ٦٨ ـ ٧٠ وتاريخ الموصل ٢ ـ ٩٠ ـ ٩١ (٣) الخطط ٦ ـ ١٠٢ (٤) الخطط ٤ ـ ٤٩ (٥) Prutz 54
(٦) الفتح ٧٣ (٧) الخطط ٤ ـ ٧ و ٣٨ (٨) أول دار انشئت للقرآن سنة ٤٤٤ هـ (٨) الخطط ٤ ـ ٣٨
(٩) منها أبو الفرج المؤرخ . راجع الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٠) الخطط ٤ ـ ٣٨ عن قال برشم (١١) ابن النديم في الخطط ٤ ـ ٣٨ (١٢) القاضي الفاضل في الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٣) الفتح ١٢١ والنوادر السلطانية ٧ (١٤) الخطط ٤ ـ ٣٩ (١٥) الخطط ٤ ـ ٤٤ (١٦) الخطط ٦ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ (١٧) الكلية ١٨ مقال السيد طباوي عن «اخوان الصفا» (١٨) نفس المكان (١٩) نفس المكان